القهر في الشعر الجاهليّ

الدكتور عدنان محمد أحمد* - مازن أحمد عثمان**

الملخّص

هذه الدراسةُ محاولةٌ لتتبّع بعض صور القهر في الشعر الجاهليّ، والكشف عن أبعادها ودلالاتها في نفوس مبدعيها من شعراء الجاهليّة، أولئك الذين عكّر الإحساس بالقهر صفو عيشهم، فعبّروا عن ذلك بأشعارهم التي جاءت مثقلةً بالحزن والأسى والإشفاق على ضعف الإنسان في واقع يُعلي من شأن القوّة والأقوياء، إلى حدٍّ تغدو معه القوّة الشرط الأوّل لحياةٍ تليق بإنسانيّة الإنسان.

تتعدّد صور القهر في الشعر الجاهليّ، وتتلوّن بألوان أسبابها ومشاعر أصحابها، ولكنّها تكشف مجتمعةً عن معاناة الإنسان في مواجهة واقعٍ يعجز عن الانتصار عليه، واقع قاسٍ يكشف للإنسان ضعفه، فيكشف له بذلك زيف أحلامه وبطلان أمانيه.

كلمات مفتاحيّة : القهر، الشعر الجاهليّ، الأدب الجاهليّ.

مقدّمة:

القهر لغة:"هو الغلبة، وقهره؛ أي غلبه، فهو قاهر، وقهّار، ويقال: أخذهم قهراً، من غير رضاهم، وفعله قهراً: بغير رضا، وأقهر الرجل: صار أمره إلى القهر، ويقال: أخذت فلاناً قُهرةً: اضطراراً، والقُهرة من النساء: الشريرة، جمعها : قُهرات، والقهّار: الغالب، لا يحدّ غلبته شيءٌ، والقهّار: اسم من أسماء الله الحسنى".[٣]

والقهر اصطلاحاً يتجلّى في كلّ تأثيرٍ خارجيٍّ أو داخليٍّ يعوق حرية الفرد، كتأثير القوى الماديّة وتأثير الغرائز والشهوات، وفي القهر الاجتماعي الذي يجسّد كل ما يعوق حرية الفرد في المجتمع، سواء أكان قهراً منظّماً كما في القوانين والنظم الاجتماعية، أم قهراً مبدّداً كما في العادات والتقاليد والأحوال الماديّة والأدبيّة[٤].

---

* أستاذ في قسم اللغة العربية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية. هـ٤٣٧٥٧٦ - جوّال ٠٩٣٣٨٩١١٠٠(٠٠٩٦٣)

** طالب دكتوراه في قسم اللغة العربية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية. جوّال ٠٩٣٣٩٦٨٠٦٢ (٠٠٩٦٣)

تاريخ الوصول: ١٣٩٣/٠٤/٠٢هـ.ش= ٢٠١٣/٠٦/٢٣م تاريخ القبول: ١٣٩٣/٠٩/٠٦ هـ.ش= ٢٠١٣/١١/٢٧م

[٣] - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، **لسان العرب**،" مادة"قهر".

[٤] – جورج صليبا، **المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والإنكليزية واللاتينية**، ج٢، ص ٢٠٠.

وقد تُجسّد النظرة المريبة للجاهلي إزاء الزمان أوضح صورةٍ للقهر الذي كان يسيطر عليه؛ لأنّ الزمن عنده متسلِّط على وجوده، يترصّده في كلّ حركةٍ، ويدمّر خططه ويفرض عليه القهر، ويشعره بالصغار والضّآلة و الضعف، وينتهي به إلى مواقف تشكّل مزيجاً من التألّم والتبرّم والتشاؤم، الذي يؤدّي إليه الشعور بالقهر إزاء الزمان الذي يحتلّ حيّزاً واسعاً من الرؤية الجاهليّة [١].

هكذا يفرض الزمان على الإنسان الجاهليّ أن يعيش حياةً قاسيةً، ويعاني ظروف البيئة الصحراويّة التي جعلت استقراره في مكانٍ واحدٍ غير ممكنٍ في أكثر الأحيان؛ لأنّ تلك البيئة القاحلة حملت إليه ما يروق له حيناً، وما يعكّر صفو عيشه من آلامٍ وأوجاعٍ أحياناً أخرى، فهو ما يكاد يحطّ الرحال في مكانٍ حتى تدفعه ظروف البيئة المتقلبة إلى الرحيل إلى مكان آخر بحثاً عن مقوّمات عيشه، مدفوعاً إلى ذلك بمؤثراتٍ مختلفةٍ، تتعلّق بظروف قوته الجسديّة والنفسيّة، وموارد مائه، وحالة الأمان التي قد يوفّرها له مكان آخر، وتلبيةً للحاجة التي يجدها في مكانه الجديد بعد أن فقدها في سابقه. تلك الحاجة التي ألقت بظلالها على القوم،وتركت آثارها السلبيّة في نفس كلّ واحدٍمنهم على حدةٍ، ممّادفعهم إلى الرحيل.

وبمقدار ما تعدّدت دوافع ذلك الرحيل في حياة الإنسان الجاهليّ، وتنوّعت صوره، كانت نتائجهُ متباينةً بالنسبة إلى الإنسان الجاهليّ، وأشكاله متلوّنة؛ لأنّ لكلّ إنسان ما يبرّر رحيله،ويفرض سببه الخاص الذي دفعه إليه، فمن الجاهليّين من كان يرحل هرباً من خطرٍ يحدق به بحثاً عن إحساس بالأمان يصونه، ويحفظ أفراد قبيلته، ويحقّق لهم السلامة ولو إلى حين، إلى أن تُتاح له فرصةٌ أخرى تلبّي حاجته بشكلٍ أفضل.

وعلى الرغم من أنّ الجاهليّ عانى بسبب ظروفه القاسية أعلى درجات القهر، فإنّه لم يستسلم لها، واختار الرحيل سبيلاً لاحتواء تلك الظروف القاسية، وخلاصاً من قيودها القاهرة التي لا يملك سبل التغلّب عليها؛ لأنّ الفقر كان هو المسيطر في أغلب الأحيان، فما كان أمام الإنسان الجاهليّ، إلاّ الدخول في دوامة التفكير في إيجاد مكانٍ جديدٍ يوفّر له، ولو جزءاً يسيراً من تلك الحاجة البسيطة التي تبعث في نفسه الحياة من جديد.

تأتي **أهمّيّة البحث** من كونه محاولةً لتسليط الضوء على بعض صور القهر التي رسمها الشعراء الجاهليّون، والتي عبّروا من خلالها عن مشكلة من أعقد المشكلات التي واجهها ويواجهها الإنسان في كلّ زمانٍ ومكانٍ، وهي مشكلة الحياة والموت، وما يرتبط بها أو يتفرّع عنها من خوف من الموت وبحث عن الخلود.

---

(١) – أحمد الخليل، **ظاهرة القلق في الشعر الجاهليّ**، ص٥١ –٥٢.

يعتمد البحث على دراسة النصوص الشعرية دراسة فنيّة، اعتماداً في ذلك على **مناهج** متعددة في قراءة النصوص، كالمنهج النفسي والمنهج الاجتماعي وغيرهما، وما يمكن أن يوفره تحليل النصوص من ومضاتٍ فكريةٍ وعاطفيةٍ، تجعل النص الجاهليّ قابلاً لقراءاتٍ متعددةٍ وتأويلاتٍ متباينةٍ، تربط أصل الدلالة بحاضرها، وتمنحها إمكان الحياة من جديد.

العرض والمناقشة:

لّما كان الإحساس بالقهر دافعاً رئيساً من دوافع ارتحال الجاهليّ من جهةٍ، وسبباً من أسباب صموده في وجه الظروف القاسية، والملمات التي أثقلت كاهله من جهةٍ ثانيةٍ،فإننا سنقف -ها هنا- على أهمّ العتبات التي تجلّى فيها القهر في الشعر الجاهليّ، وهي كما يأتي:

١ - القهر والعاذلة:

ربّما كانت العاذلة تمثّل موقف الشاعر الجاهليّ الضعيف نتيجة الأرق الذي حلّ به في سكون الليل وهدأته،حين عاش سواد ليله وحيداً يعاني ضعفاً وهمّاً وأسىً،ما فرض عليه إطاعة عاذلته،وجعله يعبّر عن فقد شبابه وضياع الأحلام السعيدة وغلبة الأيام حين تدور عليه،عندئذ يغدو التسليم بالموت أمراً واقعاً لابدّ منه.

ونرى بعض الشعراء الذين تاهوا في ظلمات الليل، وهم يقدّمون صورةً للعاذلة التي تبدو كدلالةٍ واضحةٍ على الصراع الذي يجول في دواخلهم من ناحيةٍ، وملمحٍ يقضّ مضاجعهم نتيجة المعاناة التي تعصف بهم من ناحيةٍ أخرى، خاصّةً عندما ينفرد أولئك الشعراء بذواتهم، ويبقون وحيدين في أثناء حلول اللّيل بظلامه الدامس، فيخلو الجو عندئذ للعاذلة كي تراقبهم، وتكيل اللوم لهم، وتكثر من عتابهم. وكأننا بالشاعر الجاهليّ يجنح إلى خلق العاذلة من ذاته، لتمثّل الضمير الجمعي إزاء مخالفة اجتماعية يمارسها حين يسعى إلى لقاء المحبوبة، فهو حينئذ بصدد مواجهة الأنا الأعلى التي تضبط نزواته، وتحدّ من شهواته، في سبيل تحقيق التوازن النفسي الذي يتوق الشاعر الجاهليّ إلى السكون إليه.

يعبّر الشاعر الأسود بن يعفر النهشلي[١]عن إحساسه بسيطرة ليل الحياة الداكن في نفسه، ذلك الليل الذي يلفُّهُ – مع تبدّل الأيام وتتاليها – بالقهر الدائم، ويجعله مسكوناً بهاجس الأحوال المتقلّبة

(١)- «هو الأسود بن يعفر ويقال بن يُعفر ابن عبد الأسود بن نهشل بن دارم من بني تميم ويطلق عليه اسم أعشى بني نهشل، عدّه ابن سلاّم في الطبقة الخامسة من أشعار الجاهليّين".انظر: خير الدين الزركلي،**الأعلام**، ج١،ص٣٣٠.

والرحيل الدائم، ذلك الرحيل المسكون بليل الحزن على حلاوة عيشٍ انقضت، والخوف من فقدان اللحظات الجميلة وحلول ليل العجز بتوقف زمن تلك اللحظات السعيدة قائلاً[١]:

نَامَ الخَلِيُّ وَمَا أُحِسُّ رُقَادِي ... والهَمُّ مُحْتَضِرٌ لَدَيَّ وِسَادِي
إمَّا تَرَيْنِي قَدْ بَلِيتُ وغَاضَنِي ... مَا نِيلَ مِنْ بَصَرِي وَمِنْ أَجلادِي[٢]
وعَصَيْتُ أَصْحابَ الصَّبابَة والصِّبا ... وأَطَعْتُ عَاذِلَتِي وَلانَ قِيادِي
فَلَقَدْ أَرُوحُ عَلَى التِّجَارِ مُرَجَّلاً ... مَذِلاً بِمَالِي لَيِّناً أَجْيادِي[٣]

يشير الشاعر إلى أنّ أمر العاذلة قد لازمه، وأبى أن ينصرف عنه ويتركه وشأنه، وهذا ما يندرج ضمن إطار تعبير الشاعر الجاهليّ عن ألمه ويأسه، حين يرسم صورةً لضعفه تجاه محيطه وعجزه عن إدراك الأمل الذي ينشده.

ونرى إفصاح الشاعر عن حجم القهر الذي سيطر عليه من خلال نفيه الإحساس بالنعاس، وهذا ما يزيده إحساساً بالأرق والهمّ، جراء إلقاء العاذلة عليه سيلاً من اللوم والعتاب، سيلاً يتدفق عليه، جرّاء ما فعله بماله الذي جعله يعيش حالة من التصالح مع الذات، حتى هان عليه ذلك المال، فشرع ينفقه في غير طريقه، ليثبت وجوده وقدرته، في مقابل ما يعتريه من الوهن والعجز.

وهنا يأتي دور العاذلة التي تجعله يعاني هموم لومها وقهر عتابها في أوقاتٍ من الليل عصيبةٍ عليه، ففي الوقت الذي يقاسي فيه الهموم يخلد الخلاّن إلى النوم وينعمون براحة البال، وقد قام الخليّ مقام العاذل، وناب عنه بالوظيفة والتأثير والفاعليّة، فهو القلِق المواكب على مراقبة العاشق الشاب، وهو الآمن القرير إزاء الشيخ المفارق لإرهاصات العشق والهيام والتصابي.

ولعلّ صيغة اسم الفاعل /الهمّ محتضر/، وما في هذه الصيغة من فاعلية الهمّ الذي تغلّب عليه، ومعنى الإحساس بالانهزامية والاستلاب الوجودي، بسبب الكبر،ذلك الإحساسالذي يؤكده إيراده الألفاظ الدالة على القهر(بليت، غاضني، لان...)، والتي تظهر إعمال حسّ القهر عليه مسحوقاً برّد فعلٍ سلبيٍّ إزاء مصدرها، تظهره مسلوب الإرادة، منفعلاً مع الحدث، منقاداً إلى مصدره. كما نلاحظ توظيف علامة المحسّن البديعي /عصيت – أطعت / التي تصبّ من ناحية الدلالة في مجرى العجز، وفي هذه الصورة الكثير من الدلالات لإبراز المفارقة بين الشيب والشباب، وإمعان في إظهار صورة القهر التي

(١)- الأسود بن يعفر، **الديوان**، ص٢٥و٢٨-٢٩.
(٢) – أجلاد: خلقه وشخصه.
(٣) – المذل: القلق و يقال الضجر. لينا أجيادي: أي لم أكبر.

يعانيها. و لم يكن الشاعر وحيداً في معاناته مرارة ذلك الشعور، بل شاركه كلّ من كان هدفاً لسهام عاذلته، وضحيةً لحالة الاستعلاء التي كانت العاذلة تشعر الشاعر بها، فتدفعه للهروب إلى الماضي لتعويض الحالة الحاضرة المؤلمة.

من هنا نرى سعي الشاعر واضحاً، وجهده المبذول كبيراً لاستعادة أيام الشباب وزهوه، وتعويض حالة القهر التي ألّمت به جرّاء الحالة النفسية التي سبّبتها له العاذلة.

ولا سبيل للشاعر أمام العاذلة إلاّ إطاعتها في لحظات الضعف والعجز التي استبدت به، فجعلته على هذه الصورة من فقدان عناصر الإحساس بالقوّة، والقدرة على الوقوف في وجهها.

ونرى في استسلام الشاعر، وركونه لواقعه، إقراراً واضحاً بعدم القدرة على مقارعة الزمن، وظروف الحياة التي استجدت عليه، بعد أن أصبح شيخاً ضعُف بصره وهزل جسمه، وذُلّت قيادته حين استسلم لغيره، وما هذا إلاّ تعبير واضح عن ضعف الشاعر وتقهقره. الأمر الذي سوّغ له عقد مقارنة بينه وبين الخليّ الذي لا همّ لديه، في حين شرع الشاعر النهشلي في إظهار ما يكابده من همّ وغمّ، فضلاً عمّا يعانيه من سقمٍ ومرضٍ حلاّ بجسده المنهك الهزيل، لكنّ الأمر من جهةٍ ثانيةٍ، يدفعه للعودة إلى الماضي الجميل الذي يرى فيه التعويض عمّا حلّ به في حاضره القحل، كما لو أنّ الشاعر يحافظ على لحظة القوّة هذه، أو يحاول حماية العاذلة، والإبقاء عليها في دائرة وجوده، بوصف هذا الوجود تعبيراً مباشراً عن وجوده وكينونته في هذا الإطار الذي لايريد فكاكاً منه، ولا يتمنّى انتهاء له.

من هنا كان الصراع بين الشاعر والعاذلة محتدماً لا تراجع عنه بوصفه شعوراً بالتعويض عن استسلامه وانهزامه أمام الشيب، ولاسيّما بعد حال العجز التي أصبح عليها، والنقص الذي يخفيه داخله، بعد أن كان لا يلتفت إلى لوم لائمٍ وعذل عاذلٍ، وأقام على ما هو عليه دافعاً تلك اللجاجة إلى أيام شبيه، لكنّ بعد ذلك ينصاع إلى أمر عاذلته ويطاوعها، الأمر الذي يعلّل كثرة ظهور الشاعر بوصفه متكلّماً، بصيغة الضمير المتصل الدال على الانهزامية، بعد مطاوعته العاذلة.

٢-القهر والخوف:

يقدّمُ بعض الشعراء صورةً لسواد نفسيّتهم المتساوق مع سواد الليل الطبيعي، أو عالم الغيب الذي لا يدركه الشاعر إلاّ بالرؤيا والخيال المُعبّر عنهما بالشعر، صورةً تعكس طول الليل، من خلال تراكم الهموم وسديميتها في نفوسالشعراء، تلك الهموم التي تكشف عن حسّ القهر المسيطر عليهم، نتيجة طول الليل النفسي الذي لا ينجلي من حولهم; لأنّ معاناتهم تبدو واضحةً، واستعانتهم بالليل في تصوير

هذه المعاناة تبدو أكثر وضوحاً.يقول الشاعر المثقّب العبدي[١] مؤكّداً أن الليل الذي يجثم على صدره هو مبعث القهر الذي يبسط جناحيه مكدّساً الهموم عليه[٢]:

ظللت أَرُدُّ العَينَ عن عَبَراتِها ... إذا نَزَفَت كانت سِراعاً جُمُومُها

كأنّي أُقاسي من سَوابقِ عَبرةٍ ... ومن ليلةٍ قد ضافَ صدري هُمُومها

تُردّ بأثناءٍ كأنّ نُجُومَها ... حيارى إذا ما قُلتُ غابَ نُجُومُها[٣]

فبِتُّ أضُمُّ الركبتينِ إلى الحشا. ... كأنّي راقيَ حيّةٍ أو سليمُها[٤].

تتزاحم الهموم في أعماق الشاعر حتّى تبلغ الذروة، فتجعل ليلته طويلةً، لم يعرف مثيلاً لها من قبل، هذه الليلة التي يترقّب زوالها؛ لأنّه ينتظر أمراً مهمّاً يشغل باله، ويملأ نفسه، وقد يكون الشاعر -هنا- تحت تأثير حسّ الفقد القائم على الشكوى من القهر الواقع عليه، وقد سكنه كلّ من الحيرة والخوف، بعدما أسبغ على نفسه صفة النجوم، وبات خائفاً متوجّعاً ممّا ألمّ به وهو يواجه الحيّة، وقد كنّى بها عن الليل، كما لو أنّه استحضر تجربةمتوقّعة تتساوق مع شعورهبتجربة لم تقع بعد،أو هي في طور الوقوع.

ويبدو أن ليلة الشاعر تقف منه موقف المعاداة؛ لأنّها ملأت صدره بهذه الهموم الثقال، فلم يقف الشاعر عند الإلماح لمعاداة الليل له، بل جسّد لنا بوضوح عداء الليل وقهره الدائم له.

٣ – القهر ورحيل الأحبّة:

يعمُّ الحزن الشاعر جرّاء رحيل الأحبّة؛ فتكون نبرته خافتةً، تعبّر عن قهره، وتظهر ضعفه أمام ما يجول في نفسه، لذلك نراه يسمعنا نبرةً مختلفةً عن نبرات كثيرٍ من الشعراء الذين صوّروا مواكب الراحلين، ومن بينهم الشاعر امرؤ القيس الذي ينطق بنبرة ضعيفة، ونغمة حزينة تبيّن شعوره بالقهر، وتعكس سواد الليل داخل ليل نفسه المظلم، ليل الهموم القابعة في نفسه، بسبب رحيل الأحبّة. يقول امرؤ القيس[٥]:

---

(١)- هو عائذ بن محصن بن ثعلبة. وقيل اسمه: شأس بن عائذ بن محصن بن ثعلبة بن وائلة...بن أمضى بن عبد القيس بن أمضى. وعائذ شاعر من أهل البحرين، اتصل بالملك عمرو بن هند ومدحه، ولقّب بالمثقّب لقوله في بيت من الشعر:

ظهرت بكلّةٍ وسدلنا أخرى ... وثقبنا الدهاوص للعيون.

انظر: جرجي زيدان، **تاريخ الأدب العربي**،ص١٨١.

(٢)-المثقب العبدي،**الديوان**، ص ٢٣٦.

(٣) – الأثناء: أطراف الحبال.

(٤) – الراقي: المتعوّذ. السليم: اللديغ الذي لدغته حيّة أو عقرب.

(٥)-امرؤ القيس، **الديوان**، ص ١٦٨- ١٦٩.

أَلاأنعِمْ صَبَاحاً أيُّهَـــا الرَّبْـــعُ وَانْطِـــقِ وَحدِّثْ حديثَ الرَّكْبِ إن شئتَ وَاصْدُق[١]
وَحدِّثْ بـــأنْ زَالَـــتْ بلَيْـــلٍ حُمـــولُهُمْ كَنَخْـــلٍ مِـــنَ الأعرَاضِـــغيرِ مُنَبَّـــقِ[٢]
جَعَلْـــنَ حَوَايَـــا وَاقْتَعَـــدنَ قَعَائِـــداً وَحَفَّفْـــنَ مِـــنْ حَـــوْكِ العِـــرَاقِ المُنَمَّـــقِ[٣]
وَفَـــوقَ الحَوايَـــا غِزْلَـــةٌ وَ جَـــآذِرٌ تَضَـــمَّخْنَ مِـــن مِســـكٍ ذَكِـــيٍّ وزَنْبَـــقِ[٤]
فأَتْبَعْتُهُم طَرْفِي وَ قد حالَ دُونَهُمْ عَلى إِثْـــرِ غَـــوارِبُ رَمـــلٍ ذي أَلاءٍ وَشِـــبرِقِ[٥]
حَـــــــيٍّ عَامِـــــــدِينَ لِنِيَّـــــــةٍ فَحَلُّـــوا العَقِيـــقَ أَوْ ثَنِيَّـــةَ مُطْـــرِقِ[٦].

يستغرق الشاعر بالدعاء للربع وأهله، أن ينعموا بالخير، وهو ينظر بأسىً إلى آثار الـــراحلين، فـــلا رياح تهبُّ عليه من الصحراء في تلك اللحظة غير ريح الصبا التي تغيّر طعمها الندي كلحظـــة عشـــقٍ ظليلةٍ. وريح الصبا ذات طبيعةٍ هادئةٍ وعابرةٍ قياساً على الريح الساخنة ذات الديمومة.

وعندما يهيب صوت الراحلين بالأحباب، يقف الشاعر على الربع بعد رحيلهم، ويسأله أن يحدّثـــه حديث القوم الذين تحمّلوا، ولا ينتظر الشاعر من الربع جوابه، بل يقصّ على مسامعه أخبـــار هـــؤلاء القوم الذين انقطع أمل عودتهم عند الشاعر بزوال حمولتهم التي تنبئ بعدم عـــودتهم إلى الربـــع الأول؛ فينعت نساءهم الراحلات الجميلات المترفات وما حفّفن من حوك العراق المنمّق.

وبذلك تحوّلت حياة الشاعر إلى ليلٍ بهيمٍ، تاه في غياهبه، وأصبح غير قادرٍ علـــى الإفصـــاح عـــن مشاعره نتيجة ما أصابه من ذهولٍ، وما اعتراه من حزنٍ، إزاء ما حدث أمامه من أمورٍ لا تروق لـــه، تلك الأمور التي جعلت حياته تتّشح بالسواد القاتم والليل البهيم الذي يعكّر صفو عيشه ونقاء نفســـه، لكنّه على الرغم ممّا سلف، يحاول أن يستعيض عن الأحبّة بالذكرى وعن الليل بالصباح، فيعيش بذلك واقعاً غير واقعه المفروض، ويبدع لنفسه زمناً متعارضاً مع زمن الارتحال الليليّ، سعياً منـــه إلى إعـــادة الحياة من جديد، وقد بثّها في متن القصيدة من خلال أساليب:"التنبيه، النداء، الأمر"، قبل أن يقابل بين حياته وحياة الراحلين مقابلةً معنويةً أوحى بها البيت الثالث، فما ينطبق عليه لا ينطبق على من ديدنـــه

---

(١) – الدعاء للربع والمعنى أهله،

(٢)-الأعراض : الأودية. المنبّق : الفاسد السمر.

(٣)- الحوايا: جمع الحوية: مركب من مراكب النساء. حفّف الثقوب: نسجه بالحوف وهو خشبة عريضة يســـتخدمها الحائك ومن حوك العراق: مما يُحاك بالعراق.

(٤)-غزلة : جمع غزال، الجآذر: جمع جؤذر: أولاد البقر. تضمّخن : تطيّبن.

(٥)-غوارب رمل: أوائله. الألاء: شجر، أكثر ما يكون في الرمل.

(٦)-العقيق و ثنية مطرق: موضعان.

الارتحال والبين والهجر، لذلك انصرف الشاعر إلى مخاطبة الربع، وتصوير لحظات الارتحال، والوقوف عند أفعال المرتحلين والنظر في هيئاتهم.

و لم يكنعنترة أفضلحالاً منامرئالقيس؛لأنّههوالآخرمنغمسفيحزنٍ لا يحول عنه، حزن صبغ حياته بالسواد الذي يتماهى معسواد لونه، ونرى حديثه يقترب من حديث امرئ القيس، حين شعر بالرحيل من خلال زمّ الإبل التي استسفت حبّ الخمخم وسط الديار، وهذا ما أنذره بارتحالها، ذلك الرحيل الذي فاجأه به القوم، و لم يكن ليعلم به من قبل، فكان ذلك أشدّ عليه وأبعث لجزعه. يقول عنترة(١):

إنْ كُنْتِ أَزْمَعْتِ الفِرَاقَ فإنّما ... زُمَّتْ رِكابُكُمُ بلَيْلٍ مُظْلِمِ
ما رَاعَنِي إلّا حَمُولَةُ أَهْلِهَا ... وَسْطَ الدِّيارِ تَسَفُّ حَبَّ الخِمْخِمِ
فيها اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ حَلُوبَةً ... سُوداً كخافِيَةِ الغُرابِ الأَسْحَمِ

إذن، زُمّت ركائب القوم وآذنوا بالفراق، وراع الشاعر ما يروع العاشق، وجعله يقف عاجزاً لا حول له ولا قوّة تجاه ما حدث من حوله. وبما أن نفس الشاعر تفيض بالخوف، نتيجة تحمله ما حلّ به، فإنّه يمرّ مروراً خاطفاً على الأشياء المحيطة به، والمتعلقة بأمور الظعن، بما ينسجم مع حال الخشية التي تملّكته، وأحاطت به، ووسمته بسماتها، فانعكس عنده الخوف على مفردات النصّ ودوالّه (الفراق، زُمّت، ليل، مظلم، تسفّ، سوداً، خافية، الغراب، الأسحم)، وهذا المرور السريع يتناسب طرداً مع سرعة الأحبّة في الرحيل، فـ(أزمعت تعني أسرعت)، كما يتناسب طرداً مع الركاب التي جُهّزت ليلاً للرحيل، وقد جُهل الفاعل الذي قام بفعل الزمّ، إشارة إلى وتيرة العمل الخاطفة.

وقد يكون رحيل الأحبّة في وضح النهار، لكنّ إحساس الشاعر الحزين هو الذي يضفي عليه غلالة الليل القاتمة الكئيبة، فيبدو له زمن الرحلة ليلاً حالكاً بكلّ ما قد يحمله الليل من ظلال القلق والرهبة والغموض، بل يمكن القول: إنّ نفس الشاعر المقهورة جرّاء رحيل الأحبّة صبغت المشهد بالسواد، حتى غدت النوق سوداً، يستحضر سوادها ذكر الغراب، بوصفه رمزاً للشؤم والفراق والتشتت. وقد يكون وصف النوق بـ"حلوبة"حاملاً بصيصاً من أمل، غير أنّ سوادها، وعدم اكتراثها بما يجري، أو لنقل عدم قدرتها على فهم ما يجري، وانشغالها بسفّ حبّ الخمخم وسط الديار، يطفئ ذلك البصيص، ويجعل المفارقة أكثر وضوحاً، إذ في رحيلها رحيل مادة الحياة وهي الطعام.

٤ – القهر وآلام الاغتراب:

عجز الشعراء عن إيجاد ما يحلو لهم بين أحبابهم، ما جعلهم يطلقون العنان لخيالهم؛ للبحث عن مكان أخر لعلّهم يجدون فيه قبولاً لما يحسّون في دواخلهم من حالات وجدانية، تحتاج لمن يتلاءم معها.

(١)-عنترة العبسي،**الديوان**، ص٥١.

وهذا ما فعله الشاعر المتلمّس الضبّعي[١] الذي لم يبادله عمرو بن هندٍ الودّالذي تفيض به أحاسيسه، و لم يجد فيه الصديق الذي كان يرجوه، فما كان منه إلا أن همّ بالرحيل، ولكنّ رحيله كان ليلاً أيضاً، ولذلك كان من الطبيعي أن يأخذ الليل عندهمعنىً آخر، معنىً يفيض حزناً وإحساساً بالغربة، فلا يقرّ له قرار، ولا يهنأ له المكوث في موضع. يقول المتلمّس الضبّعي معبّراً عن عمق ليله ومبلغ تأثير ذلك الليل فيه[٢]:

إنَّ العراقَ وأهلَهُ كانُوا الهَوَى ... فإذا نَأى بي وُدُّهُمْ فَلْيَبْعُدِ

فَلْتَتْرُكَنَّهُمُ بليلٍ ناقَتي ... تَذَرُ السِّماكَ وتَهْتَدي بالفَرْقَدِ[٣]

تَعدو إذا وقَعَ المُمَرُّ بدَفِّها ... عَدْوَ النَّحوصِ تَخافُ ضِيقَ المَرْصَدِ[٤]

وإذا الرِّكابُ تَواكَلَتْ بعدَ السُّرَى ... وجَرى السَّرابُ على مُتونِ الجَدْجَدِ

مَرِحَتْ وطاحَ المَرْوُ مِن أخفافِها ... جَذْبَ القَرينةِ للنَّجاءِ الأَجْرَدِ[٥]

لِبلادِ قومٍ لا يُرامُ هَديُّهُمْ . ... وهدِيُّ قومٍ آخَرينَ هوَ الرَّدِي .

نرى أنّ هوى هو عند أهل العراق، بينما أهله لم يحفظوا له هذا الود، و لم يرعوا له هذا الهوى، فصوّر ضيق نفسه التي آلمها انفصام عرى الهوى بينه وبين الأحبّة، الذين قرّر الرحيل عنهم لإحساسه الشديد بالغربة، فيقصد قوماً أعزاء لا يُضام جارهم، حين ينال السوء جيران قوم آخرين، وما أولئك القوم سوى الغساسنة الأعداء التقليديين في الشام للمناذرة في الحيرة، فلذلك يريد الشاعر من الإبل أن تنطلق مسرعةً فكلّما تراخت في مسيرتها، وفترت همتها في السير ليلاً، ولمع السراب فوق الأراضي المرتفعة، جرى لها ما ذكر آنفاً، فعاد إليها نشاطها، وقذفت الحجارة بمياسمها، وكأنّها مربوطة بقرينةٍ سريعةٍ ترجو الخلاص منها.وما حال الناقة التي أسهب الشاعر في تصويرها، ورصد حركاتها، إلا حاله النفسيّة المتأزّمة، والنازعة إلى الخلاص من القهر، والباحثة عن واقع بديل يحقّق لها صيرورتها، ما يسوّغ

(١)- هو جرير بن عبد العزّى – أو عبد المسيح – من بني ضبيعة. هو المتلمس بن عبد المسيح بن عبد الله بن أحمس بن ضبيعة بن ربيعة بن نزار وهو خال طرفة بن العبد. مات ببصرى. وقيلإنّ تسميّته المتلمس سببها قوله:

فهذا أوان العرض حتّى ذبابة ... زنابيره والأزرق المتلمّس.

انظر: الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج١، ص٣٧٥.

(٢)-المتلمّس الضبّعي،**الديوان**، ص ١٣٥- ١٣٦و١٤١-١٤٢-١٤٣.

(٣)- السماك: كوكبان نيّران وهما يمانيان.

(٤)- النحوص: الأتان في بطنها ولد.

(٥)- المروُ: حجارة بيض واحدها مروة.

له إيراد أفعال العدو، والخوف، والتواكل، والجري، والطوح، مسقطاً على ذاته حال القلق التي يعـــاني من تبعاتها وآثارها، وهو مسكون في دوامة من الاضطراب، يجسّدها الليل الطويل، ويحتوي أبعادها.

ولعلّ الرحيل ليلاً تعبير عن ضيق شديد ونفاذ صبر، لا يمكن معه الانتظار إلى زمن الفجـــر الـــذي يرمز إلى الأمل والضياء والإحساس بالوجود الواضحاالجليّ. وبناءً عليه، يأتي الاغتراب نتيجة الإحساس بالغموض، وعدم القدرة على الفهم، لذلك فإنّ الليل بحسب ما سبق، وبالنظر إلى امتـــداده وســـطوته وبهمته أكثر ملاءمة لحدوث هذا الاغتراب، فصورة ناقة المتلمّس فيها من الخوف والقلق أكثر ممّا فيهـــا من القوّة والصلابة، وعدوها عدو الأتان المذعورة التي في بطنها ولد، وحركـــة الحجـــارة بأخفافهـــا كحركة القرينة التي تريد الخلاص، على الرغم من أن الشاعر يخبرنا بوجهة يرضاها، ويصبو إليها، ولو لم يلمّح إلى إمكان الوصول إليها.

لعلّ ليل التمام من الليالي البطيئة غير المنصرمة، ومن أقسى الليالي التي تحلّ بالشعراء المحرومين، كما أنّه أطول ليالي الشتاء، تمرّ بهم ثقيلةً، بما تحمل من الهموم والأحزان والمعاناة التي تجعلهم لا يرون شمـــس نهارهم، بل يصلون الليل بالليل؛ لأنّ هموم الفقد والحرمان التي تعصف بهم تصبغ حياتهم بالقتامـــة، و تجعلهم يعانون مرارة ذلك الحرمان.

ولقد أفصح بعض الشعراء عن معاناتهم من ذلك الليل الموسوم بـــ"ليل التمام"حتى لقد غدا رمـــزاً لأشدّ ما يعانون من ضيقٍ وبرمٍ، يصلون به حدّ الخوف والفزع من سواد ما يسيطر على دواخلهم، وما يحيط بهم من ظلمة تتّسق مع ما يعانون منه جراء تلك الليلة القاسية.

ولا تختلف أجواء ليل التمام في جانب تصوير الجو الرهيب عن بقية الليالي، إلاّ بما تلقيه في الـــنفس من سرعة استشعار الطول والتباطؤ، وقد يستشعر السامع شدّة ما يلقيه الليل في أعماق النفـــوس مـــن ظلال ثقيلة بتوافر عناصر أخرى، هي التي تعمّق الإحساس برهبة الليل، لكنّ ليل التمام يلقي في النفس هذا الشعور الطاغي بصورة مباشرة دون تضافر العناصر الأخرى.

"وربما توافرت في البيت، أو المقطع، عناصر أخرى، لكنّ مع ذلك يظلّ ليل التمام مؤديـــاً المهمـــة الفنية أو الشعورية بذاته"(١).يقول امرؤ القيس في هذا المعنى دالاً على تلك الليلة السوداء القاتمة علـــى النفس بهمومها(٢):

أَعِنِّي علـــى التَّهْمَـــامِ وَالـــذِّكَرَاتِ   يَبِتْنَ علـــى ذي الهَـــمِّ مُعْتَكِـــرَاتِ

(١) -انظرخليل رشيد فالح،**الليل في الشعر الجاهلي**، مجلة آداب الرافدين، ٥٤٤.

(٢) -امرؤ القيس، **الديوان**،ص ٧٨ - ٧٩.

بِلَيْـــلِ التِّمَـــامِ أَوْ وُصِـــلْنَ بِمِثْلِـــهِ مُقَايَسَـــــةً أَيَّامُهَـــــا نَكِـــــرَاتِ

إنّ للشاعر لغته في الإبانة عن شدّة الخوف التي اعترته، وعكّرت عليه صفو تلك الليلة التي تفـيض عليه بالذكريات، ويفصح عن حجم الهمّ القابع داخله، الهمّ الذي أتعبه وهو يقاسيه بطيئاً ثقيلاً في ليل التمام الطويل بذاته، والطويل بمعاناة الشاعر المنتظر، ولذلك يطلب الشاعر الإعانة على القهـــر الـــذي يسبّبه له الليل.

إنها الإعانة من أيّ أحد، ومن غير اهتمام ممّن تكون، ولا نسرف إذا ذهبنا إلى أنه يدعو المجتمع كلّه إلى الإعانة أو إلى التعاون على هذا الليل، لما لقي منه من قهر تجلّى واضحاً في الدّوال الآتية(التـــهمام، الهمّ، معتكرات، نكرات)، هذا فضلاً عن استخدامه الفعل (يبتن) لتأكيد حلول القهر بحلـــول الليـــل، وديمومته بديمومة هذا الليل.

٥- القهروالشباب الراحل:

ربّما كان من أكثر الهموم التي تتركها الشيخوخة على كاهل الجاهليّ، ويخاف من وقعهـــا، أعبـــاء النساء على الشيخ الذي فقد رواءه وبشاشته، فتقلُّ حظوته عند صاحباته اللواتي يهجرنـــه، لأنهـــنّ لا يوافين إلاّ الأمرد[١].وفي هذا السياق يستشعر القهر؛ إذ يتحسّر أعشى قيس على شبابه الذي فقـــده، فيشير إلى جانب مهم من جوانب معاناته، أو لذّة من اللذّات التي افتقدها بعد أن غزاه الشيب وعـــلا رأسه، فأوقعه في مطب العجز وقلة الحيلة، الأمر الذي جعل تعلّقه بمرحلة الشباب شديداً لا يســـتطيع نسيان لذتها وحدّها أو الانفلات منها. يقول أعشى قيس[٢]:

أَثْـــوَى، وَقَصَّـــرَ لَيْلَـــةً لِيُـــزَوَّدَا فَمَضَّتْ وَأَخلَفَ من قُتَيلَـــةَ مَوْعِـــدَا[٣]
وَمَضَى لحاجَتِهِ، وَأَصْـــبَحَ حَبْلُهَـــا خَلَقَاً، وَكانَ يَظُـــنُّ أَنْ لـــن يُنكَـــدَا[٤]
وَأَرَى الغَوَانِيَ حِينَ شِبْتُ هَجَـــرْنَنِي أَنْ لا أَكُـــونَ لَهُـــنِّ مِثلـــيَ أمْـــرَدَا
إنّ الغَـــوَانِيَ لا يُوَاصِـــلْنَ امْـــرَأً فَقَدَ الشّـــبَابَ وَقَـــدْ يَصِـــلْنَ الأمـــرَدَا
يَلْوِنَنِي دَيْـــنِي النّهَـــارَ، وَأَجْتَـــزِي دَيْـــنِي إذا وَقَـــذَ النّعَـــاسُ الرُّقّـــدَا[٥].

---

(١)- انظر: جليل حسن محمد، **الخوف في الشعر العربي قبل الإسلام**،ص ١٧٥.

(٢) - **الأعشى الكبير، الديوان**، ص ٢٦٣.

(٣) - قتيلة: اسم امرأة.

(٤) - خلقاً: مهملاً قابلاً للانقطاع، كناية عن القطيعة وفتور العاطفة.

(٥) - وقذ: غلب.

يبدو الأعشى مهزوماً أمام الشيب الذي أشعره بالقهر، ولا يستطيع التخلص منه- والشعور هنا بانقضاء الزمن العمري الذي انصرم و لم يتحقّق – بينما كان الشباب عنده حرية وإرادة، ولذلك نراه يعلي صوته بالحسرات على أيامٍ خلت تشكّل فيه المرأة معياراً لقيمة الحياة، فإقبال المرأة يثري الحياة ويضفي عليها جمالاً، وهجرها يجعل حياة الشاعر باردةً تشعره بالعجز أمام الطرف الآخر، فتصبح حياة الشاعر ظلاماً دامساً يتّسق مع ظلام الليل المحيط به، ليل يتناقض مع ليالي الشباب التي كانت تجعل الشاعر يحقق ذاته فيها، بوجود المرأة لباي تجعل لوجوده معنىً "ويمكن القول إنّ ذكر المرأة - بشكل مباشر أو غير مباشر – يبدو شيئاً جوهرياً في هذا السياق، ففي ابتعاد المرأة عنه يبتعد الوجود؛ إذ إنّالمرأةتثير إحساس الشاعر بضعفه، وهي التي تعمّق مأساته، وتبدو وكأنها التي تلفت نظره إلى أنّه تجاوز مرحلة الشباب"(١). بإعراضها عنه وانصرافها إلى الأمرد(لا يواصلن امرأ فقد الشباب).

ونرى في سياق النصّ أنّ الشيب يتساوق مع الزمن الذي امتلكه الشاعر، ذلك الامتلاك الموحي بخسارة الشاعر مراحل عمريّة مضت من حياته، ووصوله إلى مرحلة العجز/ الشيخوخة، وهذا ما جعله يرى في الزمن عدوّاً يعطيه عمراً، ليأخذ منه قوّة ونشاطاً"من هنا أصبح لمشكلة الزمن صفة الإشكالية، فكلّ امتلاك يمثّل للإنسان زيادة، ما عدا امتلاك الزمن الذي يمثّل فقداً، فالكسب هنا قرين الخسارة، لأنّ كلّ يومٍ يمرّ بنا لا سبيل لاسترجاعه"(٢).

لم يكن الشاعر يتحسّر على أيام شبابه بوصفها زمن اللذة فحسب، بل كان يتحسّر- أيضاً - على الحياة برمّتها؛ إذ تكاد تنتهي من غير أن يحقّق فيها ذاته، ومن غير أن تمنحه ما كان يأمله منها من سعادة وهناء. لقد كانت الأيام تسلبه ما يسرّه شيئاً فشيئاً، فإذا به يرى نفسه في غربة باردة.

يقول عنترة معبّراً عن حالة القهر التي حالت دون الحصول على مبتغاه، وهو الضعيف العاجز لا سلاح له، يعاني حبّه وحيداً لا نصير له، ولا مجيب من حوله إلاّ سكون الليل الذي يزيده ألماً، وإغراقاً في معاناته التي سلبت قوّته واستهلكت صبره(٣):

دُمُوعٌ في الخُدودِ لها مَسيلُ وَعَينٌ نَوْمُهَا أَبَداً قَليلُ
وَصَبٌّ لا يَقَرُّ لَهُ قَرَارٌ وَلا يَسْلُو وَلَوْ طَالَ الرَّحيلُ
فَكَمْ أُبْلى بِإبْعَادٍ وَبَينٍ وَتَشْجيني المَنَازِلُ وَ الطُّلُولُ

(١) –عدنان أحمد، **مقالات في شعر الجاهليّة وصدر الإسلام**، ص ٤٥.

(٢) – حسني عبد الجليل يوسف، **الإنسان والزمان في العصر الجاهليّ**، ص٥.

(٣) -عنترة العبسي،**الديوان**، ص٢٣١.

وَكَمْ أبْكـــي عَلـــى إلْـــفٍ شَـــجَاني   وَمـــا يُغْـــنِي البُكـــاءُ وَلا العَوِيـــلُ
طَلَبْتُ مِـــنَ الزّمَـــانِ صَـــفَاءَ عَـــيشٍ   وَحَسْبُكَ قَدْرُ مَـــا يُعْطِـــي البَخيـــلُ
وَهَـــا أنَـــا مَيّـــتٌ إنْ لَـــمْ يُعِنّـــي   عَلى أسْـــرِ الهَـــوَى الصَّـــبْرُ الجَميـــلُ

لعلّ افتتاح الشاعر أبياته بمفردة (دموع) الواردة بصيغة التنكير، ما هو إلاّ تعبير عن عبثية الزمان التي تتحكم بأمور الشاعر، وهذا دليل إمعان في إظهار حال القهر التي تسيطر عليه، ومع ذلك حاول الشاعر المقهور أن يلتمس من الزمان فرج القهر الذي حلّبه، نتيجة ذهاب النوم من عينيه، وسيطرة الليل عليه، سواء أكان ذلك الليل الملمّ به، من حوله، أم كان في داخله، ولكنّ هيهات أن يُلبّى طلبه؛ لأنّ الزمان هو القاهر الذي يضنّ على الشاعر بالنوال، وتحقيق ما يرغب به، فالدموع – ها هنا - ليست دموع الشاعر وحده، ولا العين التي لا تنام عينه وحده، بلهي دموع الناس وعيونهم جميعاً، بالنظر إلى أنّ الشاعر يمثّلهم، ويتحدّث باسمهم، لذلك هو حزين، يبكي، ويسهر، ويتأمل نفسه البائسة الضعيفة بسبب الدهر المتجبّر الذي يباعد بين الأحبّة، فيبكيهم بلا جدوى. والمحزن أن الشاعر لم يطلب سوى صفاء العيش، وبذل حياته في سبيل ذلك، ولكنّ حياته انقضت من غير أن ينال ما كان يشقى من أجله.

كما يشير الشاعر إلى القوّة الرهيبة التي يمتلك بها الزمن خاصية الأشياء، فهو جارٍ لا يتوقف، ومتواصل لا ينقطع، ومتجدّد لا يهرم، ولا صبر للإنسان المتألم على الوقوف في وجهه. فالموت عندئذ سبيله الوحيد للخلاص من مأزقٍ وضع فيه، فلا البكاء ينفع ولا الزمن يُلّبي... إنّها الليالي الظلماء القاسية التي تفعل فعلها في نفسه وذاته ووجوده.

لقد ضاق الجاهليّ بالدهر ذرعاً وامتلأت نفسه منه رعباً،فشغل تفكيره، وأرّق ليله،ونال من صبره وتجلّده؛ ممّا يسوّغ له استخدام أسلوب التكثير والمبالغة في وصف ما آلت إليه أحواله مع الحبيب المباين له، والمتمنّع عن التواصل أو الاتصال به، فلا الدموع أجدت نفعاً معه، ولا التهيام به، ولا العويل على فقده، ثم يأتي الزمان بغية تعميق هذه الأحاسيس، فيدفع بالشاعر إلى استجداء الموت، لعلّه يرى فيه خلاصاً ممّا ألمّ به، إلا أنه من ناحية ما، بمترلة حياة أخرى يتمناها الشاعر ويسعى إلى تحصيلها، عساه يلتقي، من خلالها، المحبوبة وقد تنازلت عن صدودها وتمنّعها.

حينما تصبح هموم الشاعر الأخرى صغيرةأمام همّه الكبير، يسهل عليه احتمالها، وتهون عليه ملاقاتها، "لكنّ ما أبعد الأمن عن المكبّل بأغلال دهرٍ جائرٍ مطلق اليد في المصائر، موفور الأسباب

لإحداث التغيير والإفساد والقهر الذي يشلُّ الإنسان ويجعله في حالة عجز وضعف واستسلام لأمر واقع لا محالة"[١].

٦ - القهر والإحساس بالفناء:

بما أنّ الأيام تكرّ، والليالي تمضي بالإنسان إلى النهاية، فقد عصفت ليالي الفناء بأقوام عاد وثمود وطسم، بعد أن لعبت أدوارها على مسرح الحياة، وزالوا عن الوجود،بعد أن تغلّب الزمن عليهم، فلحقوا بآبائهم الأولين، وبقيت الليالي، وكلّما مشى عليها النهار عادت لتبسط ظلامها على امتداد التراب، لكنّ ظلامها كان مرآةً لقتامة نفس الشاعر، الذي كان يرى كلّ شيءٍ من حوله أسود قاتماً. وقد كان العربي يرى أن كلّ شيء من عالم المرئيّات يزول ويفنى، إلاّ الليل والنهار والشمس والقمر والدهر والفلك، فكلّ أولئك على حالة واحدة غير متغيّرة منذ الأزل، ولا تزال مستمرة على ذلك إلى الآن[٢] يقول مسجاج بن سباع[٣]مؤكداً اندماج نفسه القاتمة بظلام الليل[٤] :

لَقَدْ طَوَّفْتُ في الآفاقِ حَتَّى ... بَلِيتُ وَقَدْ أَنَى لِيَ لَوْ أبِيدُ

وَأَفْنَانِي ولا يَفْنَى نَهَار ... وَلَيْلٌ كُلَّما يَمْضِي يَعُودُ

وشهرٌ مستهلٌّ بعدَ شهرٍ ... وحولٌ بعدهُ حولٌ جديد

ومفقودٌ عزيزُ الفقدِ تأتي ... منيَّتُهُ و مأمولٌ و ليدُ .

إذاً نرى إصرار الشاعر في أحيانٍ كثيرة على ربط الزمان في تكامله وتناقضاته بالصيغة الاجتماعية للوجود الإنساني عبر تعاقب الليل والنهار، وتتابع الليالي وتتاليها، ونرى أن الحديث عن مضي الليالي وانقضائها، ما هو إلاّ إفناء للإنسان وقهر له، بينما الليالي متجددة باقية تحيط بالشاعر وهي متتابعة متتالية، فتقتل الأمل في نفسه، لأنّه لا يكاد يزيح ستائر الليل من نفسه المظلمة حتى تتجدّد من حوله حاملة في جوهرها معنى التغيّر والخلود في آن واحد، مثلما تحمل في جوهرها معنى التغيّر والخلود.

وبما أنّ الإنسان يعيش تجربة وجوديّة في مواجهة الزمان، فإنّنا نرى أنّ إحساس الشاعر بالزمان يقترن مع إحساسه بالفناء الذي يصيب الوجود الإنساني والحيواني، بينما يبقى العالم بما فيه من مظاهر الطبيعة محافظاً على كينونته المتغيرة. الأمر الذي يجعل الشاعر يعيش القهر، بسبب الإحساس بالفناء

---

(١)-انظر: جليل حسن محمد،**الخوف في الشعر العربي قبل الإسلام**،ص٥٠ – ٥١.

(٢) - انظر: محمد عبد المعيد خان، **الأساطير والخرافات عند العرب**، ص٤٦-٤٧.

(٣) - مسجاج بن سباع – ويقال المسجاج بن سباع – هو مسجاح بن خالد بن قيس بن نصر... بن ضبّة، من شعراء ضبّة في الجاهليّة انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام،ج٧،ص٢١٥.

(٤) –التبريزي، **شرح ديوان الحماسة**، م١، ص ٦٣٤.

والتلاشي أمام سرعة الزمن في حياته، ليصبح هدفاً تتقاذفه الأيام والليالي إلى أن تحين ساعته، ويفنى عن هذا الوجود المستمرّ من بعده على مسرح الحياة المتعاقبة التي تؤلمه، وتقضّ مضجعه، جرّاء الإحساس باقتراب لحظة الفناء، مايولّد ارتباط جدل الإنسان مع السكون بالقلق من المجهول، والخوف ممّا يخبئه له هذا المجهول خلف عتباته الزمانيّة،لأنّ"إحساسنا بالزمن يرتبط بإحساسنا بالفناء. والذي يزيد من قسوة هذا الإحساس وحدّته، هو أنّنا نموت ويبقى بعدنا الوجود مستمرّاً. ومهما اتخذنا من الوسائل التي تخلّدنا رمزاً، فإنّ الفناء هو مصيرنا"[١].

النتيجة:

وهكذا يرى البحث أنّه لا بدّ للباحث في الشعر الجاهليّ من الوصول إلى نتيجة مفادها: أنّ الزمن وتجلّياته مبعث كبير للإحساس بالقهر، فقد رأى الجاهليّون في الزمن قوّة فاعلة ومؤثّرة في مجرى حياة الإنسان، وشعروا أنّهم في سباقٍ مع لحظات الزمن التي تقمع الإنسان وتقهره...وهو مصدر أساس للشعور بالغلبة والقهر والإحباط والخيبة، خاصةً إذا اقترن بالليل.

وإذا كانت الحياة العربية محفوفة بالمجهول، حافلة بكل ما يبعث في جنبات النفس من هواجس ومخاوف تقهر الإنسان وتفرض عليه تحركاته، فإنّ البحث خلص إلى أنّ الليل يعمّق من إحساس العربي بالقهر، ويجعله على جانبٍ كبيرٍ من الحذر والحيطة، ويبقى الليل أحد المشاهد التي عكس عبرها الجاهليّ إحساسه بالقهر من الليل، الذي يحمل له الكثير من المخاوف التي تسبّب له الرهبةً والقهر.

وبناءً على ما تقدّم، وجدنا أن الشاعر الجاهليّ يتحدّث عن الليل، ويجعله معادلاً رمزيّاً لنفسه المظلمة، فالنهار يحيل على الشباب والقوّة، والليل يحيل على الهرم والوهن، لكنّ ظروف البيئة الصحراويّة وصروفها وما قد تفرضه من تنقل وارتحال دفعت بالشاعر العاشق إلى العدول عمّا سبق، عندما أضحى الليل والنهار لديه متساويين، وقد امتد الليل وتطاول مستوعباً في ظلامه الدامس معاناة العاشق المغروم، ومصغياً لذكرياته مع الحبيب. هذا من جانب، ومن جانبٍ آخر، كان الشاعر الجاهليّ يحتفي بالليل، لأنه زمن الاتصال بعيداً عن أعين العاذلة والرقباء، ممّا يسوّغ رغبته في تحويل النهار إلى ليلٍ طويلٍ، ولذلك كان غالباً ما ينعته بالدامس والمظلم، أما إذا تعلّق الأمر بالصدود، فغالباً ما كان الجاهليّ يستأنس بالكواكب والنجوم، علّها تغنيه عن نهار يلي ليله الشاقّ المرهون برضا الحبيب.

قائمة المصادر والمراجع والدوريّات:

١ - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، **لسان العرب**، ط١، بيروت: دار صادر، ١٩٥٥م.

(١) - حسني عبد الجليل يوسف، **الإنسان والزمان في العصر الجاهليّ**، ص١٩.

٢- أحمد، د.عدنان، **مقالات في شعر الجاهليّة وصدر الإسلام**، ط١، دمشق :منشورات دار المركز الثقافي للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م.

٣–الأعشى الكبير،ميمون بن قيس، **الديوان**،ط٢، شرح وتعليق:د.محمد محمد حسين، بيروت:مؤسسة الرسالة،١٩٨٠م.

٤ - امرؤ القيس،جندح بن حُجر الكندي ،**الديوان**،شرحه وضبطه وقدّم له: غريد الشيخ، ط١، بيروت : منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ، ٢٠٠١ م.

٥ - التبريزي،الخطيب،**شرح ديوان الحماسة**، م١، ط١، بيروت – لبنان :دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م.

٦ - الجاحظ،عمرو بن بحر،**البيان والتبيين**،ج١،تحقيق:عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٨م.

٧ - خان، محمد عبد المعيد، **الأساطير والخرافات عند العرب**، ط٤، بيروت – لبنان :دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٨٢م.

٨ - الخليل، أحمد، **ظاهرة القلق في الشعر الجاهليّ**، ط١، دمشق: دار طلاس،١٩٨٩ م.

٩ - الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، ج١،طبعة جديدة في ثمانية أجزاء، بيروت:دار العلم للملايين، ١٩٨٠م .

١٠ - زيدان، جرجي، **تاريخ الأدب العربي** ،مراجعة شوقي ضيف، ج١، مصر:دار الهلال،١٩٥٧م.

١١ - صليبا، جورج، **المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والإنكليزية واللاتينية**، ج٢، بيروت:دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، د. ت.

١٢ - الضبّعي، المتلمس، **الديوان**،عُني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، مطابع الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٠م.

١٣ - الضبّي،أبو العباس المفضّل،**المفضّليات**، تحقيق وشرح : محمد أحمد شاكر، وعبد السلام هارون، ط١، مصر:دار المعارف، ١٩٦٤م.

١٤- العبسي ،عنترة بن شدّاد، **ديوان**، تحقيق بدر الدين حاضري ومحمد حمامي، ط ١، بيروت:دار الشرق العربي، ١٩٩٢م..

١٥–فالح،خليل رشيد،**الليل في الشعر الجاهليّ**،مجلة آداب الرافدين،عدد٩،أيلول،العراق:جامعة الموصل، ١٩٧٨م

١٦ - المثقّب العبدي،عائذ بن محصن، **الديوان**، تحقيق وشرح: حسن كامل الصيرفي،ط١،منشورات معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية، ١٩٧١م.

١٧- محمد،جليل حسن،**الخوف في الشعر العربي قبل الإسلام**، ط٢،عَمّان:منشورات دار دجلة، ٢٠٠٩م.

١٨ - يوسف، حسين عبد الجليل، **الإنسان والزمان في العصر الجاهليّ**، القاهرة :مكتبة النهضة المصرية.

خشم و ستم در شعر جاهلی

دکتر عدنان محمد أحمد*

مازن أحمد عثمان**

چکیده:

این پژوهش تلاشی است برای بررسی برخی از تصویرهای خشم در شعر جاهلی و بیان ابعاد و معانی آن در نزد شاعران جاهلی آفرینندهٔ این معناکه احساس خشم صفای زندگیشان را مکدر کرده بود. پس در شعرهای خویش که گرانبار از حزن و ماتم و دلسوزی بر ضعف انسان بود این احساس را در چنان واقعیتی بیان کردند که شأن و منزلت قدرت و قدرتمندان را تا بدان حد بالا می برد که زور و قدرت شرط اول زندگی شایستهٔ انسانیت انسان می گشت.

بنابراین در شعر جاهلی خشم دارای تصویرهای متنوعی گردید که به رنگ انواع انگیزه‌ها واحساسات صاحبان خود جلوه‌گر شد و از رنج انسان در برخورد با واقعیتی پرده برداشت که او از غلبه بر آن ناتوان بود. واقعیت بی رحمی که ضعف انسان را به رخ او می کشید و بدین وسیله پوشالی بودن وبطلان آرزوهایش رافاش می کرد.

کلید واژه ها: خشم، شعرجاهلی ،شعراءجاهلی،نشانه ها.

* استاد گروه زبان و ادبیات عربی، دانشگاه تشرین، لاذقیه، سوریه. (نویسنده مسؤول): ۰۹۳۳۸۹۱۱۰۰ (۰۰۹۶۳)

** دانشجو دکتری گروه زبان وادبیات عربی، دانشگاه تشرین، سوریه. تلفن: ۰۹۳۳۹۶۸۰۶۲(۰۰۹۶۳)

تاریخ دریافت: ۱۳۹۳/۰٤/۰۲هـ‌ش= ۲۰۱۳/۰٦/۲۳م تاریخ پذیرش: ۱۳۹۳/۰۹/۰٦ هـ‌ش= ۲۰۱۳/۱۱/۲۷م

Oppression in the Pre-Islamic Poetry

Adnan Muhammad Ahmad[*], Mazen Othman[**]

Abstract

This study is an attempt to investigate the representation of some types of oppression in the pre-Islamic poetry and to indicate how oppression affected the pre-Islamic poets who lived a tough life of privation. They showed their feeling of resentment in many of their poems, which were full of sadness and bitterness. The images of oppression in the pre-Islamic poetry are multifarious and can be categorized according to the motives and feelings of the poets. They depict the sufferings of the human being who faces unbearable realities. These sufferings show how weak human beings are. Therefore, people find their dreams impossible to achieve and their wishes are portrayed out of reach.

Keywords: resentment, oppression, pre-Islamic poets, pre-Islamic poetry, symbols

[*]- Professor in Arabic Language and Literature, Tishreen University, Syria.

[**]- Ph.D. Student of Arabic Language and Literature, Tishreen University, Syria.